

أزهار الرياض في أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الثالث

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25936277 / فاكس: 25938411-25922620
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

المقرى، احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض في اخبار عياض
تأليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمساتى ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010
3 مج ، سم
تدمك : 9-497-341-977-978
1- المحدثون المغاربة
2- القاضي عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر، على (محقق)
ب- العنوان

ديوى: 922.13

رقم الايداع: 16753

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

روضۃ الأقدوان

فی ذکر حاله فی المنشأ والعنقوان

أقول ومن الله أسأل التأييد والعون، والوقاية والصون:

عقدنا هذه الترجمة الثانية لبيان حاله، في حله وترحاله.

فاعلم أرشدنا الله وإياك إلى طريق الرضوان، وجنب جميعنا مسالك
الذل والهوان، أن حال هذا الإمام لا تفي بها عبارتي القاصرة، ولا تحيط
إشارتي بمن عقد الفضل عليه خناصره. وما أجد لبعض ذلك مثلاً إلا بعض
قول الرئيس القاضي الكاتب أبي يحيى بن عاصم، عند ما عرف بأبيه صاحب
التحفة وقال فيه ما نصه:

مولاي الوالد يكنى أبا بكر، إن بسطت القول، وعددت الطول،
وأحكمت الأوصاف، وتوخيت الإنصاف، أنفدت الطروس، وكنت كما يقول
الناس في المثل: «من مدح العروس». وإن أضربت عن ذلك صفحا، وآثرت
غضا من البتة وشفحا، فلبئسما صنعت، ولشد ما أمسكت المعروف
ومنعت، ولكم من حقوق الأبوة أضعت، ومن ثدى المعقة رضعت، ومن
شيطان لغمصة الحق أطعت، ولم أرد إلا الإصلاح ما استطعت، وإن
توسطت واقتصرت، وأوجزت واختصرت، فلا الحق نصرت، ولا أفنان
البلاغة هصرت، ولا سبيل الرشد أبصرت، ولا عن هوى الحسدة أقصرت.

هذا ولو أني أجهدت السنة البلاغة فجهدت، وأيقظت عيون الإجابة

فسهدت واستعرت مواقف عكاظ على ما عهدت لما قررت من الفضل إلا ما به الأعداء قد شهدت، ولا استقصيت من المجد إلا ما ما أوصت به الفئة الشائنة لخلفها الأبر وعهدت، فقد كان رحمه الله علم الكمال، ورجل الحقيقة وقارا لا يخف راسيه، ولا يعرى كاسيه، وسكونا لا يطرق جانبه، ولا يهرب غالبه، وحلما لا تزل حصاته، ولا تهمل وصاته، وانقباضا لا يتعدى رسمه، ولا يتجاوز حكمه ونزاهة لا ترخص قيمتها، ولا تلين عزيمتها، وديانة لا تحسر أذيالها، ولا يشف سربالها، وإدراكا لا يفيل نصه، ولا يدرك خصله، وذهنا لا يخبو نوره، ولا ينبو مطوره، وفهما لا يخفى فلقه، ولا يلحق [طلقه، وصدقا لا يخلف موعدة، ولا يأسن مورده، وحفظا لا يسبر غوره، ولا يذبل نوره بل لا يطرق]^(١) بحرته، ولا يعطل فخره، وتحصيلا لا يفلت قنيصه، ولا يسأم حريصه، بل لا يحل عقاله، ولا يصدأ صقاله، وطلبا لا تتحد^(٢) فنونه، ولا تتعين عيونه، بل لا تحصر معارفه، ولا تقصر مصارفه.

انتهى المقصود منه، وبعض كلامه أردت لا كله، إذ هو اللائق بوصف القاضي أبي الفضل عياض إمام الملة.

قال الملاحى: كان القاضي عياض - رحمه الله تعالى - بحر علم، وهضبة دين وحلم، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبلغ من معرفته الطول والعرض، وبرز فى علم الحديث، وحمل راية الرأى، ورأس فى الأصول، وحفظ أسماء الرجال، وثقب فى علم النحو، وقيد اللغة، وأشرف على مذاهب الفقهاء، وأنحاء العلماء، وأغراض الأدباء.

انتهى كلام الملاحى.

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نيل الابتهاج.

(٢) فى سائر الأصول: «لا تتحد» والمثبت من نيل الابتهاج.

وقال ابنه القاضي أبو عبد الله بن عياض رحمه الله^(١):

نشأ أبى على عفة وصيانة، مرضى الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبيل والفهم والحدق، طالبا للعلم، حريصا عليه، مجتهدا فيه، معظما عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع في زمانه^(٢)، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه وكان من أئمة الحديث في وقته، أصوليا متكلمًا، فقيها، حافظا للمسائل، عاقدا للشروط، بصيرا بالأحكام نحويا، ريان من الأدب، شاعرا مجيدا، كاتبًا خطيبًا، حافظًا للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة^(٣)، حلو الدعابة، صبورًا حليما، جميل العشرة، جوادا سمحا، كثير الصدقة، دءوبا على العمل، صليبا في الحق، وبلغ في التفنن في العلوم ما هو مشهور، وفي العالم معلوم.

قال ابنه وابن خاتمة في مزية المَرِيَّة:

وأخذ عن أشياخ بلدته سبته: كالقاضي أبي عبد الله بن عيسى، والخطيب أبي القاسم، والفقيه أبي إسحاق بن الفاسي، وغيرهم. ثم رحل إلى الأندلس، وكان خروجه من سبته يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمس مئة، فوصل إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة، فأخذ بها عن ابن عتاب، وابن حمدين، وابن الحاج، وابن رشد، وأبي الحسين بن سراج، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي القاسم بن النحاس، وأبي بحر الأسدي، وأبي القاسم بن بَقِيٍّ وأبي الوليد هشام بن أحمد بن العواد،

(١) الإحاطة ٤/٢٢٢.

(٢) في سائر الأصول: «إلى أن برع أهل زمانه» والمثبت رواية الإحاطة ج٤ ص ٢٢٢.

(٣) في سائر الأصول: «النادر» والمثبت رواية الإحاطة.

وغيرهم من أعلام قرطبة. ثم خرج منها إلى مرسية يوم الاثنين لحمس بقين من المحرم سنة ثمان من التاريخ، فوصل مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده.

كذا قال ولده، وهو أعرف.

وقال ابن خاتمة في مزية ألمرية: إنه وصل مرسية في غرة صفر فوجد الحافظ أبا علي الصدفي مختفيا قال ابن خاتمة: وكان اختفى قبل ذلك بأيام لنبذه خطة القضاء من غير أن يعفى - ووجد الرحالين إليه قد نفذت نفقات بعضهم، ومنهم من ابتداء كتابا لم يتمه، فأخذ أكثرهم في الرجوع إلى مواطنهم، وتربص بعضهم فمكث هو بقية صفر وشهر ربيع الأول لا يقع له على خبر، سوى الظن بكونه هنالك، وقابل أثناء ذلك بأصوله، وكتب منها ما أمكن على يد خاصة من أهله، ولا يشك أن تصرفه في ذلك لم يكن إلا بأمره، إلى أن وصل كتاب قاضى الجماعة أبى محمد بن منصور بحل القاضى أبى على عن القضاء.

قال ابنه: ووصل كتابه إلى أبى معلما له بذلك، إذ كان يكرّم عليه، وعلم برحلته إليه، فخرج أبو على من اختفائه وجلس للتسميع فسمع عليه كثيرا، ولازمه، وكان له به اختصاص، فحصل له سماع كثير، فى أمد يسير.

قال ابن خاتمة: سمع عليه الصحيحين، والمؤتلف والمختلف، ومشتبه النسبة لعبد الغنى، والشهاب للقضاعى، وغير ذلك، وكتب عنه فوائد كثيرة وعارض بأصوله وأجاز له جميع رواياته.

قال ابنه رحمه الله: حكى أبو الفضل عياض رحمه الله أن القاضى أبا على الصدفي رحمه الله قال له: لولا أن الله يسر خروجى بلطفه لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس، لا يؤبه لكونى

فيه، فتدخل إليه، وأخرج مختفياً إليه بأصولي، فتجد ما ترغب، لما كان في نفسى من تعطيل رحلتك، وإخفاق رغبتك.

ولقى في رحلته هذا قولهم: جماعة من أعلام الأندلس، وأجازه أبو على الجياني، وشريح، وابن شبرين، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجازه أيضاً أبو جعفر بن بشتغير، وابن الأنقر، وأبو زيد بن منتيل وغيره من أعلام شرق الأندلس.

قال ابن خاتمة:

وفي رحلته هذه دخل ألمرية، وبها لقيه القاضي أبو جعفر بن مضاء.

قال ابنه: ووصل بلده بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمس مئة، وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً، وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى، ثم ولى القضاء عام خمس عشر وخمس مئة لثلاث بقين من صفر، فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة، مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية فى جامع سبته التى كمل بها جماله، وبنى فى جبل المينا الرابطة المشهورة، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة والمساعى المرضية، فعظم جاهه، وبعد صيته.

ثم نقل إلى غرناطة، ووصل إليه الكتاب بذلك فى أوّل يوم من صفر عام أحد وثلاثين وخمس مئة، فنهض إليها، وتقلد خطة قضائها على المعتاد من شيمته السنية، وأخلاقه المرضية، مشكوراً عند جميع الناس، لكن تاشفين ضاق به ذرعه وغص بمراقبته، وصد أصحابه عن الباطل وخدمته عن الظلم، وتشريداهم عن الأعمال، فسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة، فصرف بعد

انفصاله عنها زائرا أهله، وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبد الله رحمه الله، على الأحكام وذلك فى رمضان المعظم عام اثنين وثلاثين وخمس مئة.

ثم ولى قضاء سبته ثانية فى آخر عام تسعة وثلاثين وخمس مئة، قدمه إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين، فابتهج أهل بلده بذلك فسار فيهم السيرة التى عهدوا منه، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحدين، والاعتصام بحبلهم المتين، فأقره أمير المؤمنين أدام الله أمره على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه، وخاطبه بالتنويه، وحظى عنده وشكر بداره وسبقه. ثم رحل إليه فاجتمع به بمدينة سلا عند توجهه إلى محاصرة مراكش، فأوسع له وأجزل صلته، ولقى منه برا تاما وإكراما عاما، وانصرف إلى أحسن حال إلى أن ثارت الفتنة.

انتهى كلام ولده، وسنذكر بقيته فى محله إن شاء الله تعالى.

وقال الشيخ العلامة أبو زيد عبد الله الرحمن الغرناطى المعروف بابن القصير رحمه الله: لما ورد علينا القاضى عياض غرناطة خرج الناس للقاءه وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمر مؤمر مثله، وحزرت أعياد البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتى راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة، وخرجت مع أبى رحمه الله تعالى فى جملة من خرج، فلقيناه شخصا بادى السيادة منبئا عن اكساب المعالى والإفادة. قال: وكان وروده علينا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاثين وخمس مئة. انتهى.

وانظر قوله سنة ثلاثين مع ما تقدم لولده من أن ولايته قضاء غرناطة سنة إحدى وثلاثين، فلا أدري أيهما أصوب، إلا أن يقال أحدهما تحريف من الناسخ. والله اعلم.

ثم إنى رأيت فى الإحاطة، أنه تولى قضاء غرناطة عام أحد وثلاثين فتبين أن ذلك هو الصواب. ورأيت مثله فى غير موضع، فبان أنه لا تحريف فيه. ويبقى النظر فى الآخر المنقول عن عبد الرحمن بن القصير وقد نقله ابن جابر الوادى أشى عن عبد الرحمن المذكور كما حكيت سنة ثلاثين فالله اعلم.

ثم قال عبد الرحمن المذكور: ولما استقر عندنا كان مثل التمرة: كلما ليكت زاد حلاوة، ولفظه عذب فى كل ما صرف من الكلام، للنفس إليه تتوق وله طلاوة، وكان برا بلسانه، جوادا ببنانه، كثير التخشع فى صلاته، مواصلا لصلاته، وقد جمعنا من سيره جملا فى الكتاب الذى جمعنا فيه مناقب من أدركنا من أعيان عصرنا ونبهائه، وذكرنا له ما يفاخر برونقه وبهائه، وكان مع براعته فى علوم الشريعة خطيبا فى تجبيره للخطب، وفى لفظه، ظاهر الخشوع عند التلاوة، وفى لحظه، سريع العبرة، مديما للتفكير والعبرة، كاتبا إذا نثر، ناظما إذا شعر.

انتهى. نقله ابن جابر وغير واحد كابن رشيد.

وقال فى أوله ما نصه: قال أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد الأزدى: ولى عندنا ببلدنا غرناطة حرسها الله تعالى الفقيه الأجل الحافظ الأحفل القاضى الأكرم الأفضل الإمام الخطيب المصقع الأديب الأبرع أبو الفضل عياض. انتهى.

ونقلت من خط بعض تلامذة ابن رشيد، وهو محمد بن البردعى ما

نصه:

وعبد الرحمن هذا قد سألت عنه شيخنا المذكور - يعنى ابن رشيد -

فقال لى: لم يُعرّف به أحد من أهل الصلّات. قلت: ولا الملاحى أيضاً.

انتهى ببعض اختصار.

وكان الإمام القاضى أبو الفضل عياض رحمه الله كثير الإنصاف، ومما يدل على إنصافه الحق وتواضعه، ما حكاه عبد الرحمن المذكور آنفا إذ قال: دخلت مجلس القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة، وبه جماعة من الطلبة الأعيان يسمعون تأليفه المسمى بالشفاء، فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات: «ومن قسم به أقسط» قرأه ثلاثين وكذلك كان فى الأم التى كان يقرأ فيها، فقلت للقاضى وصل الله توفيقه: هذا لا يجوز فى هذا الموضع. فقال: ما تقول؟ فقلت: إنما هو أقسط لأن المراد فى هذا الموضع «عدل» فالفعل منه رباعى كما قال الله تعالى: ﴿... وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۙ﴾ [الحجرات]. وأما قسط فإنما هو «جار» كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۙ﴾ [الجن]. فتعجب وقال لمن حضر: إن هذا الكتاب قد قرأه على من العالم ما لا يحصى كثرة، ولا أقف على منتهى أعدادهم، وما تنبه أحد لهذه اللفظة. وفاه بلسان الإنصاف وشكر بفضلله، وأبلغ ببراعة علمه فى تحسين المناقب والأوصاف، وأورثنى ذلك عنده كرامة كبيرة ومبرة ولم تزل مستمرة، وصنع من المكارم أجزل صنيع وأبره، رحمه الله من طود علم، وهضبة فضل، وحلم، وتغمده إيانا برحمته، ونفعه كما نفع فى الدنيا والآخرة بعلمه. انتهى.

قلت: وقد رأيت نسخة من الشفا بخط هذا الشيخ عبد الرحمن المذكور، وحكى هذه المسألة فى الطرة بخطه، كما نقلته حرفا حرفا إلا قوله: «المسمى بالشفاء» فإنه لم يقله. وألفيت فى آخر هذه النسخة بخط الفقيه محمد ابن البردعى المتقدم الذكر، تلميذ ابن رشيد الفهرى عندما ذكر هذه الحكاية، ما نصه:

وعبد الرحمن هذا هو كاتب هذه النسخة، وقد عاناها أحسن معاناة،
إلا الكراسة الأخيرة، فإنها ليست بخطه، وقد ذكر هذه الحكاية فى بعض
طرره المتياسرة، حيث وقعت اللفظة المذكورة منه، وأثبتها هنالك بخطه، كما
أثبت غيرها مما يدل على علمه وتفننه فى المعارف. وقد سألت عنه شيخنا أبا
عبد الله المذكور - يعنى ابن رشيد - فقال لى: لم يعرف به أحد من أهل
الصلات. قلت: ولا الملاحى أيضاً.

انتهى ما ألفيته بخط ابن البردعى، وقد نقلت بعضه قبل هذا بأسطر،
وأعدته هنا لارتباط بعضه ببعض، والله الموفق.

قلت: ما ذكره ابن رشيد وتلميذه ابن البردعى، من أن عبد الرحمن
المذكور لم يعرف به أحد من أهل الصلات، قصور واضح، وكذا قول ابن
البردعى إنَّ الملاحى لم يذكره، فقد ذكره الملاحى وأبو جعفر بن الزبير فى
صلة الصلة وكناه أبا جعفر، لا أبا القاسم، ولا أبا زيد، كما كناه ابن جابر
وغيره مما ذكرناه.

ونص ما فى صلة ابن الزبير^(١): عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن
محمد الأزدى، من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصير، من
بيت شورى وجمالة، روى عن أبيه القاضى أبى الحسن أحمد بن أحمد، وعن
عمه أبى مروان عبد الملك بن أحمد، وعن أبوى الحسن بن درى وابن
البادش، وأبى الوليد بن رشد، وأبى إسحاق إبراهيم بن رشيق الطليطلى،
نزىل وادى آش، وأبى بكر بن العربى، وأبى الحسن بن موهب، وأبى محمد
عبد الحق بن غالب بن عطية، وأبى عبد الله بن أبى الخصال، وأبى الحسن
يونس بن مغيث، وأبى القاسم بن ورد، وأبى بكر بن مسعود الحشنى، وأبى

(١) ابن الزبير: صلة الصلة ج ٣ ص ١٨٨.

القاسم بن بقى، وأبى الفضل عياض بن موسى وغيرهم، وكان فقيها مشاورا، رفيع القدر، جليلا بارع الأدب، عارفا بالوثيقة، ناقدا لها، صاحب رواية ودراية، تقلب ببلاد الأندلس، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها، ورحل إلى مدينة فاس، فأخذ الناس عنه بها، ثم رحل إلى إفريقية وولى قضاء تقيوس، ببلاد الجريد، بمقربة من توزر، ثم ركب البحر قاصدا الحج، فتوفى شهيدا فى البحر، قتلته الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد، فى العشر الوسط من شهر ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمس مئة.

وله تواليف وخطب ورسائل ومقامات، وجمع مناقب من أدركه من أهل عصره، واختصر كتاب الحيل لابن خاقان الأصبهاني، وغير ذلك، وألف برنامج يضم رواياته. ذكره أبو القاسم بن الملجوم فى برنامجه، وروى عنه، واستوفى خبره، وذكره الملاحى، وذكره الشيخ فى الذيل، فيمن أسمه أحمد، وغلطه فى ذلك الكنية، ثم ذكره فيمن اسمه عبد الرحمن، وظن أنهما رجلا. انتهى كلام صاحب الصلة^(١).

قلت: ولعل الحامل لابن رشيد وتلميذه على هذا القصور، اعتمادهما على الكنية، التى هى أبو زيد وأبو القاسم، وقد عرفت أن صاحب الصلة قد كناه بأبى جعفر فقط، فلعلهما لم يقفا على ما ذكرناه من التعريف به أصلا، أو وقفنا على أوله، حين رأيا صاحب الصلة كناه أبا جعفر، ظنا أنه غيره، ولم يمعنا النظر فى الترجمة إلى آخرها. وإلى الله مرجع العلم.

ثم إن الغلط فى أمره وقع قبلهما لصاحب الذيل، كما قاله ابن الزبير. والله سبحانه أعلم بالصواب.

(١) ابن الزبير: صلة الصلة ج ٣ ص ١٨٨.

قلت: وقد ذكرت في هذا الموضوع بعض فوائد عبد الرحمن المذكور، المكتوبة بهامش الشفا، الذى بخطه، فراجعه فى ترجمة تآليف عياض، عند ذكر كتاب الشفا.

وقال الفقيه الأجل، الراوى العدل، الزاهد الصالح، أبو القاسم خلف ابن عبد الملك بن بشكوال رحمه الله، فى ذكر القاضى أبى الفضل عياض فى صلته، ما نصه^(١):

عياض بن موسى بن عياض اليحصبى، من أهل سبته، يكنى أبا الفضل، قدم الأندلس طالبا للعلم، وأخذ بقرطبة عن القاضى أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين، وأبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج، وعن شيخنا أبى محمد بن عتاب، وغيرهم، وأجاز له أبو على الغسانى ما رواه، وأخذ بالمشرق عن القاضى على حسين بن محمد الصدفى كثيرا، وعن غيره، وعنى بقاء الشيوخ، والأخذ عنهم، وجمع من الحديث كثيرا، وله عناية كبيرة به، واهتم بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن فى العلم، والذكاء واليقظة الفهم، واستقضى ببلده مدة طويلة، فحمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده بها، وقدم علينا قرطبة فى ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، وأخذنا عنه بعض ما عنده. وسمعته يقول: سمعت القاضى أبا على بن محمد الصدفى يقول: سمعت الإمام أبا محمد التميمى ببغداد يقول: ما لكم تأخذون العلم عنا، وتستفيدونه منا، ثم لا تترحمون علينا! فرحم الله جميع من أخذنا عنه، من شيوخنا وغفر لهم^(٢).

ثم كتب إلى القاضى أبو الفضل بخطه، فذكر أنه ولد فى منتصف شعبان من سنة ست وسبعين وأربع مئة، وتوفى رحمه الله بمراكش، مغربا عن وطنه، وسط سنة أربع وأربعين وخمس مئة. انتهى كلام ابن بشكول فى

(١) ابن بشكوال: الصلة ص ٤٢٩، والمرقبة العليا ص ١٠١.

(٢) فى سائر الأصول: «وغيرهم» والمثبت رواية الصلة وهو الصواب.

الصلة، وذكرته كله وإن كان بعضه قد تقدم ما يغني عنه، وبعضه يأتي، لأنه كلام ارتبط ببعضه.

ورأيت في كتاب «المرقبة العليا»^(١)، في الأفضية والفتيا» للقاضي الخطيب أبي الحسن علي بن عبد الله بن الحسن النباهي الغرناطي، رحمه الله، بعد أن ذكر كلام صاحب الصلة السابق، ما نصه:

قلت: وسكن القاضي أبو الفضل هذا بمالقة مدة، وتمول بها أملاكاً، وأصله من مدينة بسطة، ذكر ذلك ولده محمد بن عياض^(٢)، في الجزء الذي صنفه في التعريف به وبتواليه، وبعض أخباره وخطبه، تغمده الله وإيانا برحمته، انتهى.

وقال صاحب المطمح والقلائد في وصف القاضي عياض ما نصه: «جاء على قدر، وسبق إلى نيل المعالي وابتدر، فاستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حيام، وجلى من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواء ونكل، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٥٨) [الرحمن]، ﴿... لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٥٦) [الرحمن] قد ألحفته الأصالة راءءها، وسقته أنداءها، وألقت إليه الرياسة مقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فبذ على فتائه الكهول، سكونا وحلما، وسبقهم معرفة وعلما، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت بفضائله مسرى الرياح، فتشوقت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكى نداه الأمطار، وهو على اعتناء بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حذب»^(٣).

قال ابن جابر: هكذا وصفه صاحب المطمح. انتهى.

(١) المرقبة العليا ص ١٠١.

(٢) في سائر الأصول: «حفيده» والصواب ما أثبتناه.

(٣) قلائد العقيان ص ٦٨٣.

وهذا يدل على أن بعض ألفاظ المطمح كألفاظ القلائد لأن هذا الذى نقله ابن جابر عن المطمح، هو بعينه فى قلائد العقيان، وزاد بعد قوله: «من كل حذب» ما نصه: إلى سكون ووقار كما رسا الطود، وجمال مجلس كما حليت الخود، وعفاف وصون، ما علما فساد بعد الكون، وبهاء، لو رآته الشمس ما باهت بأضواء، وخفر، لو كان للصبح ما لاح وأسفر. انتهى^(١).

وقد رأيت بعض أوراق من المطمح، بخزانة الكتب من الجامع الأعظم بتلمسان، حرسها الله، أعنى الخزانة الوسطى، التى فوق محراب الصحن، وهى التى يجلس بها الأشراف، أحفاد الشيخ الإمام، علم الأعلام سيدى أبى عبد الله الشريف التلمسانى، رحمه الله تعالى، شارح جمل الخونجى، وصاحب التآليف المشهورة، المبرز على علماء المعقول المنقول، وعادة هؤلاء الأشراف أن يجلسوا بها يوم الجمعة، بعد الصلاة وقبلها، فوجدت ألفاظه - أعنى المطمح - كألفاظ القلائد، من غير فرق، غير أنه فى المطمح ذكر رجلاً لم يذكرهم فى القلائد، فظهر من مقتضى ذلك أن المطمح إنما زاد على القلائد فى الرجال، وأما ما اتفنا عليه فلفظهما فيه واحد^(٢).

وذكر غير واحد من الأئمة أن المطمح ثلاث نسخ: كبرى، ووسطى، وصغرى. وأصل تسميته: «مطمح الأنفس، ومسرح التأنس، فى ذكر أعيان الأندلس».

ولعلنا نذكر فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، التعريف بصاحب المطمح والقلائد المذكور، وهو الفتح بن عبد الله، الكاتب المعروف بابن خاقان، فى موضع هو أنسب من هذا، والله سبحانه المستعان، نسأله سبحانه أن ييسر علينا كل مرام، ويعتمد بالعفو ما ارتكبناه من إصرار

(١) قلائد العقيان، ص ٦٨٤.

(٢) مطمح الأنفس، ص ١١٢.

وإجرام، بجاه أشرف الخلق، ووسيلتهم إلى الحق، سيدنا محمد بن عبد الله ابن عبد الطلب بن هاشم، عليه من الله أفضل صلواته وأزكى سلامه، وعلى جميع إخوانه المرسلين والنبیین، وعلى آله، وأصحابه، وأشياعه، وأنصاره، وأزواجه، وذريته، وأهل بيته الطاهرين.

وكان القاضى أبو الفضل عياض - رحمه الله - حسن الإلقاء للمسائل، كثير التحرير للنقول، وقد انتفع به من العلماء ما لا يحصى، كأبى زيد عبد الرحمن بن القصير، المتقدم الذكر.

ومن أخذ عنه القاضى الشهير أبو جعفر أحمد بن عبد الله الرحمن بن مضاء اللخمي رحمه الله، وقد قدمنا أنه لقيه بالمرية.

وكان القاضى أبو الفضل رحمه الله تعالى وقورا، ذا سمت حسن، وهدى مستحسن، وربما تقع منه دعاية، كما تصدر من الفضلاء أمثاله.

ومن دعابته ما حكاه ولده، قال:

قال بعض أصحابنا: صنعت أبياتا تغزلت فيها، والتفت إلى أبيك رضى

الله عنه، ثم اجتمع بى، فاستنشدنى إياها، فوجمت، فعزم على، فأنشدته:

أيا مكثرا صدّي ولم آت جفوة وما أنا عن فعل الجفاء براضى

سأشكو الذى توليه من سوء عشرة إلى حكم الدنيا وأعدل قاضى

ولا حكم بينى وبينك أرتضى قضايا فى الدنيا سوى ابن عياض

قال: فلما فرغت حسن وقال: ومتى عرفتنى قوادا يا فلان، على طريق

المداعبة، رحمه الله تعالى، ورضى عنه وأرضاه.

وكان القاضى أبو الفضل رحمه الله كثير الاعتناء بالتقييد والتحصيل.

قال ابن خاتمة: كان لا يبلغ شأوه، ولا يدرك مداه، في العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه، إلى اصطلاحه بالآداب، وتحقيقه بالنظم والنشر، ومهارته في الفقه، ومشاركته في اللغة والعربية.

وبالجملة فكان جمال العصر، ومفخر الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدت رجالات المغرب، فضلا عن الأندلس، حسب فيهم صدرا. انتهى. وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوهه.

وكان رحمه الله تعالى معظما للسنة، عالما عاملا، خاشعا قانتا، قوالا للحق، لا يخاف في الله تعالى لومة لائم. وكان رحمة الله معتنيا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها، وكتابه «المشارك» أزكى شاهد على ذلك، ولقد كان بعض من لقيته من صلحاء عصرنا وعلمائه يقول: لا أحتاج في كتب الحديث إلا للمشارك، فإذا كان عندي، فلا أبالي بما فقدت منها، أو كلاما هذا معناه. وسنذكر إن شاء الله تعالى بعض ما قيل في كتاب المشارق في محله من هذا الموضوع.

وكان رحمه الله حاضر الجواب حاد الذهن، متوقد الذكاء، جامعاً للفنون آخذاً منها بالحظ الأوفر.

وكان القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله بارع الخط المغربي، وقد وقفت على خطه رحمه الله، فرأيت خطأ رائقا، وكان سريع الوضع، ويدل على ذلك كثرة أوضاعه، وكتب مع ذلك كتباً كثيرة بيده.

وكان رحمه الله تعالى حسن العبارة لطيف الإشارة، وتأليفه شاهدة بذلك، وله في الفقه المالكي اليد الطولى، وعليه المعول في حل ألفاظ المدونة

وضبط مشكلاتها، وتحرير رواياتها، وتسمية رواياتها. وتحقيق ذلك أنه جمع بين شرح المعانى وإيضاحها، وضبط الألفاظ، وذكر من رواها من الحفاظ.

صناعة التأليف بالمغرب

ولقد وقفت فى بعض التعليقات لأحد المتأخرين على كلام فى صناعة التأليف، رأيت أن أجلبه جميعه، لما فيه من ذكر بلاغة القاضى عياض، ونصه:

وقد كان للقدماء، رضى الله عنهم، فى تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقى، واصطلاح قروى. فأهل العراق جعلوا من مصطلحهم مسائل مدونة كالأساس، وبنو عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى أفراد المسائل، وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين. وأما الاصطلاح القروى فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع من السماع، وافق ذلك عوامل الأعراب أو خالفها.

فهذه كانت سيرة القوم رضوان الله عليهم، إلى أن عم التكاسل، وصار رسم العلم كالماحل. ويحقق ما قلناه تصرف التونسي فى تعاليقه اللطيفة المنزع، واللخمى فى تبصرته البارعة الختام والمطلع، إلى غير ذلك من تأليف القرويين وتعليق المحققين، من شيوخ الإفريقيين.